

هشام المؤيد

صفر ٣٦٦ - ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ

أكتوبر ٩٧٦ - ١٦ فبراير ١٠٠٩ م

عندما مات الحكم المستنصر ظهرت بادرة تُنبئ بما سيتعرض له الأندلس من المتاعب والفوضى فيما بعد ، فإن الحكم أوصى بالعرش لابنه وكان عند موته غلاماً في الثانية عشرة ، ومعنى ذلك أن السلطان سيقع في يد من يقومون بالوصاية على ذلك الطفل . وقد تنبه إلى ذلك صقالبة القصر وكان عددهم يقارب الألف ، وكان لهم في القصر نفوذ عظيم ، ولكن هذا النفوذ كان متوقفاً على وجود خليفة قوى يستفيد من خدماتهم ويثبتهم في سلطانهم ، أما الوصاية فتفتح الباب للوزراء والطامعين .

مصر الأندلس تحت رحمة الأوصياء على الخليفة القاصر :

بادر الفتيان « فائق وجوزر » كبيراً الصقالبة بكتمان خبر وفاة الحكم ، وقَرَّرَا استدعاء « المغيرة بن عبد الرحمن » وعمّ وليّ العهد هشام لكي يسندا إليه الخلافة ، ولكن سوء الحظ أراد لهما أن يستشيرا في الأمر « جعفر بن عثمان المصطفى » حاجب الحكم أى رئيس وزرائه ، وكان أبوه فى أول أمره مؤدّباً للحكم ، ونشأ هو صديقاً للخليفة ثم وصل الى السلطان عن طريق هذه الصداقة الحميمة مع الحكم ، ولكنه كان سياسياً سيئاً آنانياً عهد فى الكثير من وظائف الدولة لأبنائه وأقاربه . وكان كذلك غير أمين على الأموال ، فصور له خياله أنه إذا دافع عن خلافة هشام أصبح هو الوصى وأصبحت الدولة فى يده .

ولهذا فبدلاً من أن يكتم الأمر تظاهر بالاعتناع برأى الصقالبة ، ثم ذهب فاستدعى أنصاره وأولهم محمد بن أبى عامر صاحب الشرطة والمواريث ، وأقضى إليهم بما يُدبر الصقالبة ودعاهم إلى تأييد هشام واتفقوا على قتل المغيرة ، وتولى قتله محمد بن أبى عامر ، فكانت تلك الجناية الشنعاء نذير شؤم على جعفر المصطفى وأصحابه وعلى الأندلس كله .

وعلى أثر ذلك ببيع الصبى هشام يوم الاثنين ٣ صفر ٣٦٦ هـ / أول أكتوبر ٩٧٦ م وأقبل الناس يبائعون ، ويقال إنه لم يعترض على هذه البيعة أحدٌ

وإن كنا نؤمن أن المصحفى وصاحبه محمد بن أبى عامر قاما بعملية تدليس وإرهاب لكى يخلص السلطان لهما . وقد سعدت بهذا التوفيق « صبح » الملقبة بالبشكنسية ، وكانت فى الحقيقة شابة طموحة نافارية وهى « أم هشام » وكانت أقرب الناس إلى قلب الحكم ، وكانت كما قلنا امرأة طموحها إلى السلطان ، تتدخل فى كل شىء وكان جعفر المصحفى ومحمد بن أبى عامر يخدمانها ويمكنان لأنفسهما فى السلطان بالتقرب إليها .

وكان من الواضح أن التنافس واقع بين الرجلين لا محالة ، وبدأ النزاع فعلاً ، فاستعان محمد بن أبى عامر بصبح على غريمه ، فلم يلبث أن رقى وزيراً ، ثم أصبح حاجباً أى رئيساً للوزراء .

وما إن وصل إلى هذه الوظيفة حتى غدر بصاحبه القديم ، فأسقطه من الوزارة وألزمه داره ، ثم بدأ تحقيقاً معه فيما ضيع هو وآله من أموال وأمر به فسجن سجناً طويلاً ، ثم أمر بقتله . وهكذا دفع المصحفى ثمن جريمته فى قتل أمير برىء دون أى جريمة تستحق ذلك .

محمد بن أبى عامر يصبح السلطان الأعلى فى الدولة :

وعقب ذلك انقلب ابن أبى عامر على الصقالبة ، فعزل رؤساءهم ثم أخرج معظمهم من القصر ، وتواطأ مع القادة وصاحب المدينة وقائد الجند وصاحب الأعتة على القبض على ناصية السلطان ، وبالفعل لم تمر سنة حتى وصل ذلك الرجل إلى السلطان فى الدولة ثم حجر على هشام الصبى ، فلم يسمح لأحد برؤياه ، وأقنع أمه بأنه يفعل ذلك محافظة على سلامة الخليفة الصغير من المتآمرين والراغبين فى القضاء عليه .

والحقيقة أن الخطر العظيم على العرش كان ابن أبى عامر نفسه ، فقد نشأ هذا الرجل متآمراً خبيثاً أنانياً ، وأسرته ترجع إلى أصلٍ يمتنى ويقال إنه من شلب فى البرتغال الحالية ، وكان أبوه فقيهاً ذا مكانة ، ودرس هو فى بلده ثم فى قرطبة ليصبح فقيهاً مثل أبيه ولكنه كان طموحاً إلى المناصب مؤهلاً للعمل فى السياسة ، وقد حكيت أساطير عن أصله وأوليائه وطريقته وصوله إلى السلطان ، ولكن الحقيقة أن خالاً له كان من كبار رجال الإدارة والقصر ، فسعى له حتى أقامه على

خطة المواريث في إشبيلية ، وبفضل خاله أيضاً - وكان صهره - نُقل إلى نفس الوظيفة في قرطبة ، ثم رُشِّح للنظر في أملاك الأمير هشام قبل أن يلي الحكم ، وهنا كانت مهارة ابن أبي عامر الذي توصل عن طريق الولد إلى الاتصال بالأم وجعلها ترى أنه يستطيع تأييد حق ابنها في وراثة العرش ، وعن هذا الطريق تمكّن أمره وانفتح أمامه باب السلطان .

المهم أن محمد بن أبي عامر سار في طريق سيئ لا ينظر إلا لصالحه ويضحى في سبيل ذلك بكل شيء ، فهو لا يكاد يصل إلى هدف مستعينا بحلفاء وأنصار حتى يتخلى عن حلفائه بل يغدر بهم دون رحمة أو ضمير ، وقد لمس ميل « الحكم » الشديد إلى أن يخلفه ابنه فتقرّب منه وكسب ثقته ، ثم ندبه في بعض المهام العسكرية في المغرب ، وهناك بدأ ابن أبي عامر يكسب ولاء القادة والفرسان ، وأغدق عليهم من أموال الدولة دون حساب ، لأن هذه الأموال كان المفروض أن تعطى لرؤساء البربر فاستخدمها ابن أبي عامر في مصالحه الشخصية .

وعندما وصل ابن أبي عامر إلى هذه الدرجة من السلطان اتجه اهتمامه إلى أن يمسك بيده زمام الجيش ، وكان يتولاه القائد غالب بن عبد الرحمن الناصري صاحب الانتصارات العظيمة في المغرب وفي الثغر الشمالي . فخطب ابن أبي عامر ابنة غالب وتزوجها ، وأوسع لنفسه بذلك طريقاً إلى قلب هذا القائد الكبير .

ولا شك في أن زواج ابن أبي عامر من ابنة غالب قد أوجد قلقاً في نفس صبح البشكنسية ، فأصبحت ترى بوضوح أن هذا الرجل سائر في طريق يختلف عن الطريق الذي كانت تريده هي أن يسير فيه ، وبدأ صراع خفي بين ابن أبي عامر وهذه السيدة التي كانت سبب وصوله إلى السلطان ، ولكن « صباحاً » لم تكن تستطيع شيئاً وحدها ، خاصة وقد ذهب أمر صقالبة القصر ، وكانت تستطيع أن تستعين بهم لو أنها لم تُعن محمد بن أبي عامر عليهم .

وفي هذه الأثناء كان ابن أبي عامر قد تمكّن من قلب غالب ، خاصة وقد استصدر له مرسوماً يعطيه لقب ذى الوزارتين ، ولم ينس ابن أبي عامر نفسه في أثناء ذلك فجعل نفسه قائد جيش الحضرة ، في حين اقتصر غالب على قيادة جيش الثغر .

وبجيش الحضرة هذا بدأ ابن أبى عامر يقوم بغزوات فى الشمال فقام بغزوة موفقة فى غرب أراضى ليون سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٧م. وتنحى له غالب حاسباً أنه خليفة فعلاً ، وفى العام التالى قام بحملة أخرى عاد بعدها محملاً بالفتائم والسبى فازداد صيته وأحبه الجند وتحدث باسمه الناس . ولا بد أن نذكر هنا أن غالباً كان قد أسن ومال إلى القعود والراحة .

محمد بن أبى عامر ينشئ جيشاً خاصاً به من المرتزقة :

واهتم ابن أبى عامر بإنشاء جيش خاص به وكان ذلك أسوأ أعماله ، فاستقيم الألوف من البربر وأدخلهم فى خدمته ، ولم يلبث أن أصبح له منهم جيش ضخم يُخشى بأسه ، وقد نفر الأندلسيون وقدماء المحاربين من ذلك الجيش البربرى الغربى عن البلاد نفوراً شديداً ، وكرههم أهل قرطبة بسبب دالتهم العظيمة على صاحب السلطان ، ولكن ذلك كله كان لا يهـم ابن أبى عامر ، بل ظن أنه يستفيد منه ، فقد كان نفور الأندلسيين من جنده البربر يحول دون اتحاد عناصر الجيش القديم ضده ، ويجعل البربر يشعرون بأن مستقبلهم معتمد عليه ، أما نفور الناس من البربر فكان كفيلاً بأن يجعل البربر أكثر تمسكاً به وتأييداً لسلطانه .

وفى أثناء ذلك أخذ ابن أبى عامر يطارد كل الظاهرين من بنى أمية الذين يخشى منافستهم ، فاضطهد هذا البيت الجليل اضطهاداً شديداً وقتل الكثيرين من رجاله ، وهرب منهم نفر وسكن الباقون خوفاً منه .

ولم يبق بعد ذلك إلا غالب الناصرى وقد تنبّه هذا الرجل إلى خديعة ابن أبى عامر إياه ، وبدأ صراع عنيف بين الرجلين انتهى بقتل غالب وبذلك خلا الجو لابن أبى عامر ، فأصبح بهذه الأساليب الشريرة سيد الأندلس دون منازع ، يحكمه بالإرهاب والقوة والعنف والجريمة ، مما كان له أسوأ الأثر على البلاد فيما بعد .

ومن غريب أمر هذا الرجل ودلائل مكره الشرير ، أنه كان يحرص دائماً على الوقية بين جيشه البربرى الجديد والجيش الأندلسى القديم غير مبال بما قد يؤدى إليه ذلك من نتائج ، فإن جيش الأندلس القديم كان يقوم على تقاليد

عسكرية جلييلة ، وضعها قادة عظماء ذكرنا بعضهم مثل عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وأبى العباس أحمد بن محمد بن أبى عبده ، وكان هذا الجيش مرتباً على نحو منظمّ يضمن لرجالته التدريب والخبرة ، وكان ضباط ذلك الجيش يعرفون بالعرفاء والمُفرد عريف ، وكان العريف يدرّب تدريباً طويلاً أثناء الخدمة العسكرية ، وكان العرفاء من أبناء البيوت الكريمة ومن أبناء رجال الجيش ، فقد كانت العادة أن يخلف المحارب ابنه الأكبر ، أو أحد أبنائه في وظيفته ، فكان للجيش الأندلسى بذلك نظام وترتيب ، وكان يعتبر درع الأندلس .

وقد حرص ابن أبى عامر على أن يحطّ من أمر أولئك الجنود البواسل وأن يظهر في كل مناسبة أن جنده الجديد أمهر وأقدر منهم ، فامتلات قلوب المحاربين حقداً عليه وعلى جنده المرتزق ، وهكذا أصبح العداء شديداً بين جيشى الدولة . وظهر بوضوح أنه إذا اختفى محمد بن أبى عامر من الميدان وقعت الحرب الأهلية بين الجيشين .

وقد نشأت عن ذلك كراهة عميقة بين الأندلسيين عامة وأولئك البربر الجدد ، وسنرى أن تلك الكراهة كانت من أسباب سقوط دولة بنى أمية وتفرق أمر الأندلس .

غزوات محمد بن أبى عامر دوى عظيم ونتيجة قليلة :

وكان محمد بن أبى عامر يحس أن الناس جميعاً يرون فيه الغاصب المتآمر الماكر ، الذى وصل إلى السلطان بالخداع والمكر والأساليب السيئة مثل علاقته بصبح البشكنسية ، وكانت هذه العلاقة موضع تعليق وسخرية كثير من جانب الأندلسيين ، ولهذا فقد اتجه إلى تغطية ذلك كله بأعمال تبهر العقول وتجذب إليه قلوب الناس ، وفي تلك العصور لم يكن هناك ما يجذب القلب مثل الجهاد والغزوات ، فبدأ سلسلة طويلة من الغزوات الموفقة في كل بلاد إسبانيا النصرانية ، وقد تناسى الشعب الأندلسى فعلاً أعمال ابن أبى عامر السيئة إلى جانب هذا النشاط العسكرى ، ولكنه لم يثر فيهم ذلك الحماس الذى كانت تثيره غزوات أمراء بنى أمية وخلفائهم ، أولاً لأن الذين كانوا يقومون بهذه الأعمال لم يكونوا

جند الأندلس كما كان الحال قَبْلاً ، بل جند محمد بن أبي عامر ، ولم يكن الأندلسيون يحبونهم ، وثانياً لأن هذه الغزوات على كثرتها لم تؤد إلى أى نتيجة حاسمة ، ولقد قام محمد بن أبي عامر باثنتين وخمسين غزوة خلال نحو ٢٤ سنة ، ولكن حدود دولة الإسلام ظلت على ما كانت عليه ، ولو أن محمد بن أبي عامر استطاع بهذه الجهود أن يرفع حدود الإسلام في الشمال الغربي إلى شمال خط الدويرو بصفة نهائية لكان ذلك أحسن بكثير من هذه الغزوات المتوالية التي أضعفت بلاد النصارى ولكنها لم تغيّر من أحوالها .

ولو أن خليفة محمد بن أبي عامر كان رجلاً قادراً مثله فربما كان يمكن أن تكون لهذه الغزوات نتيجة عظيمة ، ولكنه أصر على أن يخلفه ابنه « عبد الملك » وكان شاباً جريئاً بأسلاً ولكنه كان طائشاً جاهلاً كثير المفاسد فلم يعمر إلا سبع سنوات ثم كان الطوفان بعد ذلك .

محمد بن أبي عامر يتخذ لقب الحاجب المنصور ويخاطب بلقب الملك :

ولقد كسب ابن أبي عامر في أواسط سنة ٣٧١هـ / ٩٨١م . نصراً عظيماً على قوات مملكتى ليون ونبرة وكونتينية قشتالة ، وعندما عاد إلى قرطبة اتخذ لقب الحاجب المنصور وأمر بالدعاء لنفسه على المنابر ونقش اسمه على السكة واتخذ حياة الملوك وأخذ الوزراء ورجال الدولة بتقبيل يده عند المشول بين يديه ، أى أنه صار في الحقيقة ملكاً للأندلس يحكم باسم خليفة محجور عليه في قصور الزهراء وقد وضع عليه محمد بن أبي عامر الأرصاد والعيون ، بل أحاط الزهراء بسور وخنق حتى لا يدخل إليها أحدٌ إلا بإذن .

وقد رأى محمد بن أبي عامر أن يتخذ لنفسه أيضاً مدينة ملوكية فاختر مكاناً شرقى قرطبة وبنى فيه قصوراً سماها « الزاهرة أو العامرية » وجعل الوزراء ورجال الدولة ينشئون القصور حول داره ، وخمل أمر الزهراء ، وقد نفر الأندلسيون من ذلك كله نفوراً شديداً ، خاصة وأن محمد بن أبي عامر كان لا يتورع عن ارتكاب أى جريمة في سبيل الوصول إلى غاياته ، ومن ذلك أنه كان قد

استقدم « جعفر بن علي » الزعيم الزناتي مع رجاله إلى الأندلس ليضرب غالباً الناصري ، وأعطاه لقب الوزارة والقيادة ، فلما انتصر على غالب جعل رجاله يفتالون جعفر بن علي ، على أسوأ صورة سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢ م .

ومن أكبر غزوات المنصور وأدلها على طبيعة أعماله العسكرية قيامه في صيف ٣٧٤هـ / ٩٨٥ م . بحملة واسعة على إقليم قطلونية ودخوله برشلونة التي كانت قد سقطت في أيدي قوات الفرنجة سنة ١٨٥هـ / ٨٠١ م . ثم تحولت بعد ذلك إلى كونتينة قطلونية ، فافتتحها المنصور في صيف ذلك العام ودمرتها جنوده ، وبدلاً من أن يضمها إلى بلاد المسلمين ويعمرها بهم ويشحنها بالجند نراه ينصرف عنها دون أن يترك بها حامية أو جنداً ، فكأنه لم يقصد إلا التدمير وإنزال الضربات العنيفة التي تحدث دويماً ، ولكنها لا تصل إلى تحقيق هدف واضح دائم بعد ذلك .

ونظر المنصور بعد ذلك في أمر المغرب ، وكان الحسن بن كنون قد صالح الفاطميين ودخل في طاعتهم ودعا لهم في قلعة حجر النسر شمال المغرب الأقصى واعتز بتأييد « بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي » عدو الزناتيين وهم أنصار المنصور ، فسارع بإرسال جيش قوى سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٥ م . وأردفه بجيش آخر ، فحاط قلعة النسر واستنزل الحسن بن كنون على الأمان ، وطلب الرجل أن يذهب إلى قرطبة مستأمناً .

ولو أنه طلب ذلك إلى عبد الرحمن الناصر أو ابنه الحكم المستنصر لأجيب إلى الأمان ، ولكن المنصور تظاهر بالموافقة ، ثم أمر بقتله وهو في الطريق إلى قرطبة في جمادى الأولى ٣٧٥هـ . وأواخر ٩٨٥ م . وبذلك ارتكب المنصور غدرًا جديدًا شنيعاً وقد تطير الناس من هذا الحادث وقال أهل قرطبة إن المنصور لن ينجو من عقاب الله جزاءً له على هذه الجريمة الشنيعة التي ارتكبها في حق حفيد النبي ﷺ . وقد استمر نشاط رجال المنصور في المغرب ، ولكن مقتل الحسن بن كنون وتشرذم الباقين من أفراد بنيهِ يعتبر النهاية الحقيقية للدور الثاني لدولة الأدارسة ، فلم نعد نسمع عنهم بعد ذلك خاصة وقد عهد المنصور في حكم المغرب الأقصى إلى « زيري ابن عطية الزناتي » وكان خصم الصنهاجيين والفاطميين العنيد ، فلم يلبث هذا الزعيم الزناتي أن أصبح السيد الأعلى للمغرب الأقصى ، ولما كان صديقاً للمنصور حليفاً للبيت الأموي فقد تركه المنصور على ذلك مطمئناً إلى أن الخطر

الفاطمي على الأندلس قد زال نهائياً ، وكان ذلك سنة ٣٧٩هـ / ٩٨٩م .

وقبل ذلك بعام كان المنصور قد قام بغزوة موفقة على مملكة ليون ، واحتل العاصمة نفسها وخربها ، فهرب ملكها « برمودو الثاني » إلى « سمورة » فطارده المنصور إليها واستولى عليها وخربها ، وعلى أثر ذلك دخل ملك ليون في طاعة المنصور وأدى إليه الجزية ، وكذلك فعل كل ملوك الشمال والشمال الغربي لإسبانيا النصرانية ، فأصبحت كلها تؤدى الإتاوات للمنصور فيما عدا الطرف الشمالي الغربي من جليقية .

وكان من أشد ما غير قلوب الأندلسيين على المنصور غدره « بعبد الرحمن بن مطرف التجيبي » صاحب سرقسطة وممثل بني هاشم التجيبيين ، وكانوا من أعرق أهل البيوتات الأندلسية التي اشتهرت بالشجاعة وبعد الهمة ، وقد قتل هذا الرجل غدرًا في نهاية صفر ٣٧٩هـ / ٩٨٩م . وعلى أثر ذلك قتل المنصور ابنه عبد الملك إذ اتهمه بالتدبير عليه ، وكان هذا الشاب الطائش قد حاول الاستعانة بعبد الرحمن بن مطرف التجيبي « وبغرسية فرناندت » كونت قشتالة لينتقم من أبيه لأنه كان يفضل عليه أخاه الأصغر عبد الملك ، وقد عاقب المنصور بعد ذلك غرسية فرناندت ، وما زال يحاربه حتى أخذه أسيرًا إلى قرطبة ، ولكنه مات متأثرًا بجراحه في الطريق وخلفه ابنه « سانشو غرسية » فأصبح من أتباع المنصور الذين يؤدون إليه الجزية .

وفي سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م . اتخذ المنصور لنفسه لقب الملك وأصدر أمره بأن يخاطب بالملك الكريم المنصور ، ومن الواضح أن المنصور كان يتجه إلى أن يجعل نفسه خليفة وقيم بيته مكان بيت بني أمية ، ولكن الظروف كلها كانت لا تعينه على إدراك هذا المطلب ، لأن الناس جميعاً في الأندلس لم يكونوا مستعدين لقبول هذا التغيير ، وعلى الرغم من القوة الكبرى التي وصل إليها هذا الرجل إلا أن الأندلسيين ما كانوا ليوقروه ، لأنه في نظرهم لم يكن ليخرج عن طامع ذكي ، استطاع الوصول إلى ما يريد بمواتاة حظ لا يصدق ، وكان هو يشعر بذلك ويتحامى الأندلسيين وألسنتهم الطويلة ، والحقيقة أن المنصور كان رجلاً في غاية الذكاء والقوة ، وكانت مواهبه للحكم عظيمة ، ولكنه كان لا يتورع عن الجريمة في

سبيل الوصول إلى ما يريد ، والمسلمون بطبعهم لا ينفرون من شيء قدر نفورهم من الجرائم والخداع وانعدام الضمير ، نعم إن عبد الرحمن بن معاوية ارتكب بعض الجرائم ، ولكن الذين كانوا قبله ارتكبوا أبشع منها ، فكان هو في نظر الناس مخلصاً لهم من شر الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى ، ثم إن جرائم عبد الرحمن الداخل لم تتناول الناس كلهم ، بل طائفة معينة والخصوم السياسيين ، وفيما عدا ذلك كان رجلاً مأموناً وشريفاً ، أما المنصور فلم يكن للشرف عنده قيمة ، وكان أهل الأندلس كلهم يتحدثون عن سوء أفاعيله .

وربما كان من الممكن أن يتغاضى الناس عن جرائم المنصور لو أنه كان وريث بيت ملك وسيادة ، ولا ننسى أننا في العصور الوسطى ، أيام كان الناس يؤمنون بأن هناك بيوتاً عريقة ذات حسب ، ولها الحق في أن تصل إلى الملك ، أما بقية الناس فلا حق لهم في الوصول إلى العرش ، وقد كان من أكبر ما أعان عبد الرحمن الداخل على إقامة دولة ، أنه كان سليل بنى أمية وحفيد خليفة هو هشام بن عبد الملك ، ثم إنه قرشى ، من ذلك القبيل العربي العريق الذى يمثل الصدارة في عالم الشرف والسؤدد ، أما المنصور محمد بن أبى عامر فكان رجلاً عادياً من سلاسل اليمينيين ، ولم يكن المسلمون في أى قطر مستعدين للتسليم بسيادة يمنى أياً كان ، حتى لقد وضعوا حديثاً يقول : « لن تقوم الساعة حتى يقوم رجل من بنى قحطان ويسوق الناس بعصاه » ، وهم يريدون بذلك أن الساعة لن تقوم حتى يصل الحكم إلى أسوأ مستوى ، وكان المنصور من معافر وهى من صغريات قبائل اليمن ، ثم إن أباه كان فقيهاً عادياً معروفاً للكثيرين من أهل قرطبة وشيوخها ، ومثل هذا الصلب لا يخرج في رأيهم بيتاً ملكياً .

ولكن أكثر ما أضر بالمنصور ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أنه أقام ملكه على جند مرتزقة من البربر أجنبى عن البلاد ، وكان جند المنصور معتزىن بتأييده يتعالون على الناس ويثيرون سخطهم ، وقد وقفت كل البيوت الأندلسية العريقة موقف تحفظ من المنصور ، حتى الذين دخلوا منهم في خدمة المنصور فعلوا ذلك خوفاً على حياتهم ، فإن غدرات هذا الرجل ما كانت لتؤمن أبداً .

الحزب العامري :

ولكى يسد هذا الضعف لجأ المنصور إلى اصطناع بيوت جديدة في العاصمة والأقاليم ، وكان رجاله هؤلاء يتكونون من زعانف أبناء الأسر الكريمة وضعاف رجالها ، ثم من الطامحين من صغار الفقهاء ، فرفعهم ابن أبي عامر إلى وظائف القضاة وأقامهم عمالاً على النواحي ، ولم يتورع أولئك الناس عن طلب المال معتمدين على وظائفهم فأصبحوا من أغنى أهل النواحي وتكونت حولهم حواش من أمثالهم ، ومن أمثلة هؤلاء « بنو عباد » في إشبيلية « وبنو يعيش » في طليطلة ، أما الهاشميون من أفراد البيوت الكبيرة فمثالهم « أبو مروان عبد الملك بن شهيد » سليل أسرة بني شهيد ، فقد كان شاعراً ممتازاً وعبقرياً فكرياً ، ولكنه كان رجلاً منحل الأخلاق لا يسمو إلى مراتب بني شهيد العظماء ، وقد جعله المنصور نديمه وشاعره وصاحبه ، وكذلك يحيى الملقب « بسماجة بن عبد الرحمن بن مطرف التجيبي » سيد الثغر الأعلى الذي قتله المنصور ، وقد كان يحيى سماجة هذا من سخفاء الولاة ، وعلى يده تحول بيت بني هاشم التجيبيين من بيتٍ جليلٍ من بيوت الحكم إلى بيت طامعين في السلطان والجاه بأى طريق .

واستعان ابن أبي عامر كذلك بنفّر من زعماء البربر النازلين في بعض النواحي مثل بني « الأفضس » الذين كانوا يقيمون في بطليوس ، وبني « ذى النون » وكان موطنهم في شنتبرية في جنوب غربي طليطلة .

وكذلك اصطنع ابن أبي عامر صقالبة جددا اشتراهم لحسابه لكي يصيروا من جنده وحراسه ورجاله .

ومن هؤلاء جميعاً تكون ما يعرف بالحزب العامري ، ومعظم رجاله من طراز محمد بن أبي عامر خُلُقاً ، أى أنهم أنانيون ماديون لا يفكرون في جماعة ولا صالح الإسلام أو العروبة ، بل همُّ الواحد منهم أن يصبح منصوراً صغيراً في ناحية أو في حدود سلطته .

وهؤلاء الناس الذين تَرَبَّؤا في مدرسة المنصور هذه ، هم الذين سيقضون على وحدة الأندلس بتمسكهم بالسلطان في نواحيهم وحرص الواحد منهم على أن يكون أميراً بأى ثمن ، أولئك هم الذين سيعرفهم التاريخ بالاسم المشئوم : ملوك الطوائف .

والأمر الثاني : هو انعدام المفهوم الأخلاقي عنده تماماً ، ومثل هذا الرجل يخافه الناس ولا يحبونه ، ويحذرونه ولا يقبلون منه شيئاً ، لأنهم لا يعرفون ما يخبئه لهم ، ولهذا ، وعلى الرغم مما وصل إليه المنصور من قوة وسلطان فإن أنصاره أنفسهم كانوا يكرهونه في نفوسهم ، لأنهم كانوا يخافونه على أنفسهم ، فإنه كان مستعداً لأن يطيح برأس أى واحد منهم لأقل شك في تصرفاته أو نواياه .

وكان المنصور كثير التجسس على الناس ، بل كان يهدى الناس الجوارى والعبيد لكي يصبخوا عيوناً له عليهم في بيوتهم ، وقد أفسد أخلاق الناس بالرشوة وما يجرى مجراها ، وعلى مثل هذا الأساس لا يستطيع رجل أن ينشئ دولة .

والأمر الثالث : هو أن المنصور لم يرزق ولداً قادراً على النهوض بالعبء من بعده ، فقد كان له من الأولاد ثلاثة : واحد قتله بنفسه ، أما الاثنان الباقيان فهما عبد الملك الذى جاء من بعده وقد أشرنا إليه ، ثم عبد الرحمن وكان شاباً سيئ الخلق طائش العقل قاسى القلب ، وقد دفعه سوء رأيه إلى أن يستصدر من الخليفة المحجور عليه هشام عهداً بتعيينه وليّ عهده في الخلافة ، وكانت نيته أن يتخلص منه بالقتل بعد ذلك ، ولكن سخط الناس بلغ إلى حد لم يسمح لهم بالاستمرار فقامت الثورة على ذلك الشاب وقتل سنة ١٠٠٣ م . وانتهى أمر بنى عامر في يوم وليلة .

وقد أبدى المنصور في أواخر أيامه نشاطاً واسعاً في الغزو ، ويبدو أنه كان يرى أن الوقت قد آن لكي يخطو خطوته الكبرى في اتخاذ لقب الخلافة ، فأراد أن يمهّد لذلك بانتصارات كبرى في ميادين الجهاد ، فقام في سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م بأكبر غزواته وهى المعروفة باسم غزوة « شنت ياقب » ، وشنت ياقب أو القديس يعقوب الحوارى وهو بالفرنسية « سام جاك » كان من حوارى المسيح ، وقد وصل إلى إسبانيا فيما تقول الأسطورة ، واتجه إلى شمال غربى الأندلس وهناك مات ودفن وحَفِيَ قبره ، ثم ظهر نجمٌ دلّ راهبين على مكانه ، فكشفوا عنه وتأكدوا من وجوده في المكان المسمى « كومبو ستيللا » وعلى الفور أقيمت كنيسة كبرى عرفت باسم « سنتياجو » أى القديس يعقوب ، أصبحت من أعظم المزارات النصرانية لا في إسبانيا فحسب بل في أوربا كلها .

أراد المنصور أن يغزو شنت ياقب فقام بحملة كبرى حشد فيها كل قواته ، بل نقل الجنود وأثقال الجيش بالبحر حتى مصب نهر « المنيو » وهناك أرسلت

السفن وتقدم الرجال من بقية الجيش ، واقتحم المنصور شنت ياقب بالقوة وضرب مبانيها وهدم كنيستها العظمى ولم يترك إلا قبر يعقوب لأنه من الحواريين، وقد رفعت هذه الغزوة صيت المنصور في أوربا كلها وأصبح اسم المنصور رمزاً للرعب والخوف في كل نواحيها .

وكانت آخر غزوة قام بها المنصور في ربيع ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م وكانت وجهتها برغش وأراضى كونتينة قشتالة ، وقد احتلها المنصور وهزم قواتها ، ثم عاث في أراضى مملكة ليون ، ولكن ديبب المرض كان يمشى في جسده ، وشعر الرجل به وهو في الطريق إلى برغش ، وبعد الواقعة اشتد به المرض فحُبل في محفةٍ، فلما وصلوا إلى مدينة سالم كانت قواه قد وهنت تمامًا ، وتقول المراجع النصرانية إن النصارى هاجموا جيشه وهزموه في معركة قرب حصن يسمى قلعة النسور ، وعقب ذلك بقليل توفى المنصور ودفن في مدينة سالم ، وكان يحمل كفنه معه ، وكذلك كان يجمع الغبار الذى يعلق بملابسه أثناء الغزو ، فدفنوه وذرروا عليه غبار الجهاد وواروه التراب في تلك القاعدة العسكرية الإسلامية العريقة ، وقد كتبوا على قبره :

أشارهُ تنبيكَ عن أخبارِهِ حتَّى كأنَّكَ بالغيَّانِ تَراهُ
تاللهِ لا يأتى الزمانُ بمثلهِ أبداً ، ولا يَحْمِي الثغورَ سيَّواهُ

تقدير المنصور :

ولا شك أن المنصور محمد بن أبى عامر كان من أعظم الرجال ، فقد قام بما لم يقم به أحد في تاريخ الإسلام : استولى على أزمة السلطان في دولة كبرى في أوج سلطانها ، ووجه أمورها وساس أهلها سياسة مستبد غاشم لا يسمح بأي مشاركة له في السلطان ، وقد استغل في الوصول إلى ذلك مجموعة من الظروف أدت بالاندلس إلى ما يمكن أن نسميه فراغا في السلطان ، ومهارته في أنه عرف كيف يحتل هذا الفراغ بسرعة ويمكن لنفسه فيه . أما هذه الظروف فضعف الحكم المستنصر في آخر أيامه ورغبته الشديدة في أن يصير الملك من بعده الى ابنه هشام ،

وكان هشام صغيراً جداً لا يزال بينه وبين سن الرشد ثمانية أعوام على الأقل ، وخلال هذه المدة كان لا بد أن يمسك السلطان واحد من الرجال ، ولم ينظر الحكم في تعيين أوصياء ، بل ترك الأمر للمقادير ، وكان أكبر رجاله وصاحب الحجابة - والمفروض أنه كان يقوم بدور الوصى - رجلاً فاسداً أنانياً قاسى القلب بعيداً عن الخلق وهو « جعفر المصحفى » ، وقد افتضح أمره بقتل أمير برىء ومن ناحية أخرى نرى أن أبناء عبد الرحمن الناصر وهم أعمام ولى العهد ، كان ينقصهم الذكاء وبعد النظر ، وقد فوجئ واحد منهم وقُتل ، واستسلم الثانى للمقادير ثم اختفى ، وربما كان عبد الرحمن الناصر مسئولاً عن تلك الحالة ، فقد قضى على إرادات الرجال وشلَّ نشاطهم وقضى على الكثيرين منهم بسيطرته البالغة .

المهم أن المنصور وجد هذه الظروف واستغلها لصالحه ، ولا شك أنه كان مؤهلاً للسياسة بطبعه ، حائزاً للكثير من الصفات التى يحتاج إليها رجل السلطان ، فهو شديد الذكاء دائم اليقظة يرى الأمور فى وضوح ويتبين خط العمل ويعمل فى سرعة يعجز معها خصومه عن التفكير ، وقد وصل إلى ما يريد قبل أن يستجمع أحد ممن حوله أفكاره ، إذ كان يخطو من مشكلة إلى مشكلة فى سرعة وثقة فى النفس دون أن يدري أحد بوضوح إلى ماذا يريد . ومن الواضح أن الخطوة الحاسمة فى وصوله إلى السلطان كانت السيطرة على « صبح البشكنسية » وتولى الأمر باسم هشام مشتركاً فى ذلك مع جعفر المصحفى ثم أسقط المصحفى وبقي هو فى الميدان وحده يستصدر من الأوامر ما يشاء .

وأهم ما استصدره ، هو الأمر بفصل جيش الحضرة عن الجيش العام وتعيينه قائداً له ، فقد أصبحت تحت يده قوة عسكرية لها خطرهما ، وقد تصورت « صبح » أنه يعمل فى خدمة ابنها ففتحت له خزانة المال ، وبالمال استكثر من الجند ، أى أنه أصبح مستبداً عسكرياً ، وهنا لم تبق أمامه عقبة ، فهذا قائد عسكري يحكم بقوة السلاح . ومثل هذا فى التاريخ كثير ، ولكن عبقرية المنصور كانت فى كيفية الانتقال من طالب علم وفقه إلى رجل سياسة ، ومن رجل سياسة إلى قائد عسكري .

والسؤال الآن : ماذا فعل المنصور بالسلطان الذى وصل إليه ؟

إن أمامنا أمثلة كثيرة من المستبدين بالعروش وما فعلوا ، هناك مثلاً

«ريشيليو» ذلك الكاردينال الفرنسي الذي جعل نفسه وصياً على الملك الصغير لويس الثالث عشر . لقد تمتع ريشيليو بسلطان عظيم ، أعظم بكثير من سلطان المنصور ، ولكنه عمل دائماً لرفعة التاج ولخدمة فرنسا ، وعندما توفي ريشيليو ولويس الثالث عشر وجاءت أيام لويس الرابع عشر وصلت فرنسا الى أوج القوة والسيادة في أوروبا ، وكان ذلك نتيجة لعمل ريشيليو الذى اجتهد في خدمة فرنسا وتاجها ووجد أمرها وحارب خصومها في الداخل والخارج حتى وصل بها إلى زعامة أوروبا .

ولكن المنصور لم يستطع أن يفعل شيئاً مثل ذلك . لقد حَقَّرَ حكام الخلافة وحَقَّرَ أمرها وحمل عليها وحرَّض رجاله وأبناءه عليها واتجه رأساً إلى القضاء عليها ، وكانت الخلافة القرطبية هي عماد قوة الإسلام والعروبة في الأندلس ، وبدونها تتعرض للفوضى والأخطار ، ولكن المنصور لم ينظر إلى شىء من ذلك ، واتجه إلى تخريب ذلك النظام القيم لكي يجعل نفسه سلطاناً .

وقد ملك المنصور من القوة العسكرية ما لم يملكه أحد غيره في الأندلس ، كان سلطانه أقوى من سلطان عبد الرحمن الناصر ، لأن الناصر رغم نزعته إلى الاستبداد كانت له حدود يعرف كيف يقف عندها ، فهو لا يسرف في الحروب مع الممالك النصرانية ، لعلمه بأن من المستحيل عليه القضاء عليها ، ولهذا كان يكتفي بإضعافها وردعها عن الإغارة على بلاده وإخضاعها لقرطبة وإشعارها بالضعف عن طريق أداء الجزية ، أما المنصور فوالى الضربات دون حساب ، وهو في ضرباته لم يحاول أن يقتطع جزءاً من أراضيها ويضمه نهائياً إلى أرض الخلافة . لم يحاول مثلاً القضاء على كل أثر لسلطان النصارى جنوب «دويرو» وإسكان المسلمين في الأراضي التي يفتحها ليحول هذه البلاد إلى أرض إسلامية ، لو أنه فعل ذلك لكان من الممكن أن يقال إنه فعل شيئاً حاسماً ، ولكن جيوشه كانت تضرب وتعود بالغنائم ، فيعود النصارى إلى ما كانوا عليه وهكذا حتى النهاية ، فكانه في الواقع لم يفعل شيئاً . كانت هذه السياسة يمكن أن تؤدي إلى نتيجة اذا واصلها الناس بعده لمدة قرن مثلاً ، فإن ذلك كان حرياً بأن يضعف القوى النصرانية إلى حدٍّ لا تستطيع معه أن تفعل شيئاً بعد ذلك ، ولكن المنصور لم يفعل هذا ولم يخلفه من يواصل عمله ، فكانت النتيجة أن النصارى استطاعوا خلال السنوات التي أعقبت موته تجديد قواهم واستقوا بعد ذلك على المسلمين .

ولم ينشئ المنصور في الأندلس شيئاً جديداً : فلا هو أوجد نظاماً جديداً ولا أصلح شيئاً من عيوب النظام القائم . وأهم ما أنشأه توسيع المسجد الجامع بقدر الثلث من الناحية الشرقية ، وقد أضحى بها الجامع أعظم مساجد بلاد الإسلام من ناحية الحجم والهندسة حتى بلغت مساحته ٢٤٣٠٠ متر مربع ، أى ما يزيد على ستة فدادين ، وليس في الدنيا مسجد ولا كنيسة ولا أثر آخر بهذا الحجم ، باستثناء قصور فرساي . ولم ينفرد الجامع بالحجم فقط ، بل كان طرازه رائعاً حقاً وقد تحدثنا عنه فيما سبق .

لم ينشئ المنصور إذن شيئاً ، بل هدم الكثير ، حطم البيت الأموي تحطيماً لم يستطع أن يقوم على قدميه بعده ، وتتبع كل من يُرجى خيرٌ من أفرادِه بالقتل والأذى والتشريد ، وفعل مثل ذلك بأبناء البيوت الموازية ، نعم لقد خدمه الكثير من رجالها ، ولكنه جعلهم أتباعاً وندماً وحواشي ، والحواشي لا تنفع أحداً ولا تقيم مُعْوجاً .

وقد أحاط المنصور نفسه بسيارات كلها ضرر وخطر على المجتمع : أنشأ الجيش البربري الجديد فكان بلاءً على الأندلس ، إذ أصبحت القوة العسكرية للبلاد منقسمة إلى قسمين متعادين ، وفي حالة أى اضطراب في النظام لم يكن هناك مفرٌ من الحرب الأهلية ، وأنشأ الحزب العامري من رجال على غراره ، كلهم طامعون أنانيون لا يعمر قلوبهم إيمانٌ ، وهؤلاء هم الذين سيرثون الأندلس من بعده ويتقاسمونه فيما بينهم . لقد حكم المنصور سبعة وعشرين عاماً هجريةً انتهت ليلة الاثنين ٢٧ رمضان ٣٩٢هـ / ١١ أغسطس ١٠٠٢م ، ولا نستطيع القول أنها كانت خيراً على الأندلس . لقد أحدث دويماً كبيراً بأعماله وانتصاراته ، ولكنه كان كالطبل الأجوف : صوت كبير وعمل قليل .

وقد أجمعت الروايات الإسلامية على التحدث بمآثر المنصور دون أن تخفى جرائمه ، ومعظمها يصفه بالتقى ويقول إن الجهاد كان قرّة عينه ، والحقيقة أن رجالاً من طراز المنصور كانوا لا يتورعون عن الجرائم في سبيل سلطانهم ، أما خارج السلطان وبعيداً عن منافساته فلا مانع من أن يكونوا ذوى عاطفة دينية واهتمام بشئون العبادة والإحسان وما إلى ذلك . هكذا كان أيضاً أحمد بن طولون وأبو العباس السفاح وغيرهما من جبابرة تاريخنا ، وعلى هذا الأساس من الممكن

أن نتصور كيف كانوا يجمعون بين الإجرام والتقى ، بين الشر الخالص والخير الخالص دون أن يكون في ذلك تعارض ودون أن يحسوا بما يرتكبونه من جرائم .

عبد الملك المظفر بن المنصور

رمضان ٣٩٢ - صفر ٣٩٩ هـ

أغسطس ١٠٠٢ - أكتوبر ١٠٠٨ م

وقد خَلَفَ المنصور في سلطانه ابنه عبدُ الملك المظفرُ الذي تلقب بسيف الدولة وكانت سنُّه ٢٨ سنة ، وقد ورث عن أبيه ملكاً واسعاً مستقراً في الظاهر ، ولكنه كان في الحقيقة مهدداً بالأخطار ، لأنه رغم استصداره من الخليفة هشام مرسوماً بتفويضه في الحكم ، كان يشعر أنه كان غاصباً ، وكذلك كان كل من حوله ، وكان هناك كثيرون جداً في قرطبة ونواحي الأندلس يتربصون به - وبأل عامر جميعاً - الدوائر .

ولم يكن عبد الملك المظفر لسوء حظ أبيه مؤهلاً للوقوف في وجه العقبات التي كان لا بد له من تخطيها ، كان ينقصه العمق الإنساني والتكوين الفكري ، فعلى الرغم من اجتهاد أبيه في تكوينه إلا أنه لم يكن غير جندي جاهل ، تربى وسط الجنود دون أن يكون لديه موهبة القيادة ، فكان طوال حكمه القصير نهبا بين رجاله وأهمهم صقلبي من موالى أبيه يسمى « طرفة » ووزير قوى مداور مناور يسمى « عيسى بن سعيد بن القطاع » ، وكان الشاب إلى جانب ذلك مسرفاً في الشراب ، لا يكاد يهبط الليل حتى يعقد مجلس الشراب مع رجاله ، وكلهم ثعالب يجتهدون في الفوز منه بأى شيء ، وفي ساعات الشراب كان يستمع لوشايات الوشاة ويصدر أحكاماً عنيفة ، ففتك بمولاه طرفة ثم قتل سعيد بن القطاع في مجلس شرابه على أسوأ صورة ، وقد خافه الناس ، وشيئاً فشيئاً تحول هذا الشاب ، الذي تولى الملك في الثامنة والعشرين شاباً تحيط به الآمال ويملا قلوب الناس من ناحية الاستبشار ، إلى طاغية ظلوم غادر ، وقد كان أبوه يعرف كيف يلين حيناً ويشتد حيناً ويقسو ويأسو ، أما هو فلم يكن لديه من ذلك شيء ، وإنه لمن المحزن أن نرى كيف أخذ الفراغ يحيط بهذا الشاب ، إلا من عتاة الجند والمرتزقين الذين كانوا لا يشيرون عليه بخير أبداً .

وقد قام عبد الملك بن المنصور بغزوات كبيرة لا تخلو من مهارة ، ولكنها كانت من طراز غزوات أبيه ، أى أنها كانت ضربات قصيرة الأمد والمدى . غزا قطلونية وبرشلونة سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م وأرغم أميرها « رامون بوريل الثالث » على طلب الصلح ، وفى صيف ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م غزا أراضي ليون ، وفى صيف ٣٩٦هـ / ١٠٠٦م . غزا مملكة نبرة واحتل بنبلونة وفى ٣٩٧هـ / ١٠٠٧م غزا كونتية قشتالة ، ثم غزاها مرة أخرى فى العام التالى ، وفيه أيضاً أراد أن يخرج للغزو مرة ثالثة ، ولكنه مرض واشتدت به العلة ، وتوفى ربما من التهاب رئوى فى ١٦ صفر ٣٩٩هـ / ٢١ أكتوبر ١٠٠٨م وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره بعد أن حكم ٧ سنوات فحسب ، كانت سنوات رخاء ونصر ، ولكن الناس كانوا يتوقعون كارثة ربما لأنهم كانوا يتمنون زوال العامريين . ومن الواضح أن الذى قضى على عبد الملك كان انهماكه فى ملذاته ، لأن ما أصابه كان نتيجة استهتاره بصحته وتعرضه للبرد وإسرافه فى السهر حتى أعياى جسده .

عبد الرحمن بن المنصور :

وَحَلَفَهُ أَخُوهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الَّذِي تَلَقَّبَ بِالْمَأْمُونِ وَيُقَالُ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي قَتَلَهُ ، وَكَانَ شَابًا طَائِشًا قَاسِيًا مَجْرَدًا مِنَ الصِّفَاتِ الإِيجَابِيَّةِ الْمُؤَهِّلَةِ لِلْحُكْمِ السَّلِيمِ ، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ ضَاقُوا ذُرْعًا بِاسْتِبْدَادِ الْعَامِرِيِّينَ وَكَانَتْ أُمُّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَفِيدَةً لِسَانَشُو غَرْسِيهِ مَلِكِ نَبْرَةَ ، وَكَانَ أَبُوهَا سَانَشُو أَبَارِكَةَ ذَلِكَ الْكَنْدِ الأَرغُونِي أَحَدَ الأَمْرَاءِ الْمُطَالِبِينَ بِالْعَرْشِ وَالَّذِي أَسْرَهُ الْمَنْصُورُ ثُمَّ أَطْلَقَ سِرَاحَهُ وَتَزَوَّجَ ابْنَتَهُ ، وَكَانَ قَدْ انْضَمَّ إِلَى الْمَنْصُورِ أَمَلًا فِي أَنْ يَعِينَهُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى عَرْشِ نَبْرَةَ ، أَمَّا أُمُّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَقَدْ أَسْلَمَتْ وَتَسَمَّتْ بِاسْمِ « عَبْدِهِ » وَكَانَ الأَنْدَلِيسِيُّونَ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ عَنْهُ وَلَا يَسْتَرِيحُونَ إِلَيْهِ ، أَيْ : لَا يَسْتَرِيحُونَ لِأَنَّ أُمَّهُ نَصْرَانِيَّةً فَلَقَبُوهُ بِشَنْجُولٍ أَوْ سَانَشُولُو . Sanchuelo أَوْ سَانَشُو الصَّغِيرِ نَسَبَةً لِأُمَّهُ بِنْتُ سَانَشُو أَبَارِكَةَ كَمَا قَدَّمْنَا ، وَكَانَ النَّاسُ يَكْرَهُونَهُ وَيَحْتَقِرُونَهُ وَلَمْ يَحْتَمِلُوا أَنْ يَرَوْهُ قَائِمًا بِالأَمْرِ مَكَانَ أَبِيهِ الْمَنْصُورِ . وَزَادَ سَخَطَهُمْ عِنْدَمَا سَمِعُوا أَنَّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ شَنْجُولٌ ، يَسْعَى لِكَيْ يَسْتَصْدِرَ مَرْسُومًا بِتَعْيِينِهِ وَلِيًّا لِعَهْدِ الخِلافةِ . وَقَدْ أَنْكَرَ النَّاسُ ذَلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا وَقَامَتْ قِيَامَتُهُمْ لِأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ مِنَ النَّاحِيَةِ الأَخْلَاقِيَّةِ أْبْعَدَ مَا يَكُونُ عَنْ أَنْ يَسْتَحِقَّ الخِلافةَ . وَلَكِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَعَلَ ذَلِكَ وَأَصْبَحَ وَلى عَهْدِ الخِليفةِ . وَبَقِيَتْ

أمامه خطوة القضاء على الخليفة نفسه لكي يصبح هو صاحب الأمر ، ومن سوء الحظ أن رجلاً مثل القاضي « أبى العباس بن ذكوان » والكاتب « أبى حفص أحمد ابن برد » أيّدوه في ذلك .

مقتل عبد الرحمن بن شنجول وسقوط العامريين :

وبدأ الصراع بين هذا الرجل المتسلّق والأرستقراطية القرطبية التي طال سكوتها دون أن ترفع صوتها ، وقد أخذ احتجاجها صورة انصراف أفرادها عن التوافد على قصر الزاهرة ، لأن قادة البربر كانوا يتقدمون عليهم هناك ، فأصدر عبد الرحمن أمراً يلزمهم بلبس العمائم ، وكانت لباس زعماء البربر والتخلى عن أغطية الرأس الأندلسية ، فبدأت الاتصالات بين كبار الأندلسيين وبقياء الأمويين ، وتحدث الناس بأن هناك مؤامرة تدار لإعادة بنى أمية إلى السلطان . وأراد عبد الرحمن أن يقوى مركزه بغزوات يقوم بها ، فأعلن أنه خارج لغزو قشتالة في يناير ١٠٠٩ م جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ ولم تكن العادة أن يخرج الناس للغزو في هذا الوقت ، ونصح الناس شنجول بالأى يخرج ، ولكنه أصرّ ، وقد وصل إلى جليقية ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً نظراً لخلوّ الأراضى من المزروعات وشدة البرد وهرب النصارى إلى فنن الجبال فقفل راجعاً ، ولم يكد يدخل طليطلة حتى بلغه أن ثورة قامت في قرطبة وأن الناس هاجموا مدينة الزاهرة ونهبوا ذخائرها .

ثورة قرطبة وبداية الفتنة الكبرى

١٦ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ / ١٥ فبراير ١٠٠٩ م:

وكان ذلك حقاً فإن نفراً من الباقيين المشردين من بنى أمية قرروا انتهاز فرصة ابتعاد عبد الرحمن شنجول والجيش للقيام بالثورة مستعينين في ذلك «بالذلفاء» أم عبد الملك المظفر ، وكانت لا تشكّ في أن عبد الرحمن شنجول قتل أخاه - ابنها - بالسّم . فاتصلت بنفر من شُبان بنى أمية الساعين في سقوط بنى عامر ، وكان زعيمهم شاباً مغامراً يسمّى محمد بن هشام بن عبد الجبار وهو من أمناء عبد الرحمن الناصر . فاتفق هذا الشاب مع أنصاره على أن ينتظروا حتى يدخل عبد الرحمن شنجول أرض النصارى لكي يقوموا بضربتهم ، لأن الجيش

يحتاج إلى شهر لكي يعود من هناك . وبالفعل نفذوا المؤامرة في ١٦ جمادى الأولى ٣٩٩هـ / ١٥ فبراير ١٠٠٩م باديئين بالهجوم على قصر قرطبة واقتحموه وقتلوا صاحب المدينة عبد الله بن أبي عامر ، ثم بايع محمد بن عبد الجبار لنفسه وبإيعه أصحابه واتخذ لقب المهدي واختار قريباً له يسمى سليمان بن هشام وجعله ولي عهده وأرغم هشاماً (الثاني) المؤيد على التنازل فتنازل بعد أن مكث في منصب الخلافة ٣٣ سنة . كان ذلك يوم الأربعاء ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩هـ / ١٦ فبراير ١٠٠٩م ثم تهدمت قصور الزاهرة وتلاشى أمرها في أيام .

وعندما وصلت أخبار الانقلاب إلى الجيش تخلى معظم رجاله عن عبد الرحمن بسبب احتقارهم البالغ له ، ونصحه مولاه « واضح » حاكم طليطلة أن يظل مكانه ، ولكن شنجول كان يحسب أنه إذا ما اقترب من قرطبة خرج الناس مرحبين به ، فسار نحوها ورفض زعماء البربر وخاصة « محمد بن يعلى الزناتي » زعيم زناتة أن يوافق عبد الرحمن على اقتحام قرطبة بالقوة ، لأن أولاد البربر وأسرتهم فيها ، وتخلى البربر جميعاً عنه وتركوه عائدين إلى قرطبة لحماية أسرهم ، أما عبد الرحمن ، فمازال يسير حتى وجد نفسه وحيداً وقد تخلى عنه كل الناس وانتهى أمره إلى أن قبض عليه رجال محمد بن عبد الجبار في دير على نهر « أرملاط » قرب قرطبة وقتلوه في ٣ رجب ٣٩٩هـ / ٣ مارس ١٠٠٩م وكانت تلك هي النهاية المحزنة التي انتهت إليها أمر بني عامر .

والحقيقة أن الثورة كانت على النظام العامري المستبد كله ، فقد كانت النفوس قد ضاقت بذلك النظام الغاشم الذي لم يخدم إلا مصالح آل عامر ، ثم جاء عبد الرحمن شنجول بطيشه وفساده وقلة تدبره ، فلم يلبث في المنصب أكثر من ثلاثة أشهر ثم كانت الثورة وانتهى النظام بمصرعه ، كما ذكرنا .

الفتنة الكبرى :

من سوء الحظ أن محمد بن هشام بن عبد الجبار كان من أسوأ طراز عرفناه في شباب بني أمية الأندلسيين ، فقد كان طائشاً قليل التفكير سوقى النزعات ، لطول ما عاش في الأحياء الفقيرة متنكراً بين رعاي قرطبة ، ولذلك أحاط نفسه

بطائفة ممن كانوا على شاكلته ، لا يحسنون غير النهب والسرقة فأذوا الناس أذى شديداً ، وبدأ بوضوح أن الأمل الذى علّقه الناس على هذا الرجل لن يلبث أن يتلاشى .

لقد تولى محمد بن هشام بن عبد الجبار الأمر دون أن تكون لديه أية فكرة عن الدولة وشئونها ، واتخذ لقب المهدي .

وقد أجمع الناس عليه أول الأمر مؤمّنين أنه يستطيع القبض على ناصية الأمور وتسييرها في الطريق الذى سارت عليه إلى الآن ، ولكن ابن عبد الجبار لم يقدّر إلا بشيء واحد هو الانتقام من العامريين والاستمتاع بما ظن أنه من حقوق الخلفاء .

ولم يكن الرجل الذى يستدعيه الموقف . فقد كان الوقت وقت انقلاب وفوضى ، ومست الحاجة إلى رجل حاسم حازم يمسك بزمام الأمور ويقرّها في نصابها ويردع العامة عما أسرفت فيه من الفوضى والنهب .

وكان لابد كذلك من النظر في العودة إلى قواعد النظام التى قضى عليها المنصور بقسوته واستبداده ، ولكن محمد بن عبد الجبار لم يكن يملك أية موهبة ، كان سفاكاً قاسياً منحط النزعات ولم يهده ذكاؤه إلى شيء غير الاستبداد بالبربر وأذاهم وإهانتهم عقاباً لهم على تأييد بنى عامر ، ثم الانتقام من العامريين .

وقد أساء ابن عبد الجبار التصرف لأنه ناصب البربر العدا ، وكان أولئك البربر قد أتى بهم ابن أبى عامر إلى هذه البلاد مرتزقين في أعداد كبيرة يتزعمهم نفر من خيرة زعماء بربر المغربين الأوسط والاقصى ، وكانوا قد كسبوا مالا عربيقاً واتخذوا الأندلس وطناً لهم ، فأراد هذا الرجل أن يقضى عليهم . وكان من واجب ابن عبد الجبار أن يؤمّن البربر على مراكزهم ومكانهم ، فقد أتوا إلى هذه البلاد للاشتراك في الجهاد وأبلوا بلاءً حسناً ، وليس ذنبهم أن ابن أبى عامر استقوى بهم على بنى أمية .

وكان ذلك خطأ جسيماً منه ، لأن أولئك البربر كانوا قوة كبيرة ولم يكونوا كما ظن يعتبرون أنفسهم رجال العامريين ، بل إنهم بادروا عقب مقتل عبد الرحمن شنجول بإعلان الطاعة للخليفة الجديد ، ولو أنه كان على شيء من

السياسة لقبيل ولاءهم ، كما فعل جده عبد الرحمن الناصر عندما تولى وأخذ يستألف الناس حتى استقر له الأمر، وبدلاً من ذلك نجد محمد بن عبد الجبار يحاول استذلال البربر بل أمر يوماً من الأيام بشيخهم « زاوى بن زيرى الصنهاجى » فمنع من دخول القصر وأهين ، وكانت النتيجة أن تخوَّف منه البربر ووقفوا منه موقف العداء ، فقرر في أواخر مارس ١٠٠٩م / رجب ٣٩٩ إخراج كل البربر الذين كانوا فى خدمة المنصور من قرطبة ، فرفض هؤلاء الخروج وبدأ الصراع بين البربر والأندلسيين فى عاصمة الخلافة .

وكان هذا الانشقاق فى الجيش من أسوأ ما أصاب الأندلس لأن الجيش كان درع المملكة ، وهذا الانقسام كسر وحدة الجيش وحرّم الدولة من أن تكون لها قوة عسكرية تستطيع الدفاع عنها .

وعقب ذلك مباشرة أعلن محمد بن عبد الجبار المهدي موت هشام المؤيّد الخليفة الذى حكم تحت ظل العامريين ، وكان ذلك فى ٢٧ شعبان ٣٩٩ هـ / ٢٦ أبريل ١٠٠٩م ودفن هذا الرجل فى مشهد فى نفر كبير من الناس من بينهم القاضى أبى العباس بن ذكوان ، ولكن الحقيقة أن هشاماً المؤيّد لم يمت ولم يُقَبْر ولكن ابن عبد الجبار فعل ذلك ليخلو له الطريق ، وقد سخر الناس فى قرطبة من ذلك العمل لأنهم كانوا يعرفون أن هشاماً لم يمت .

وخاف البربر من نوايا محمد بن عبد الجبار ، فتجمعوا خارج قرطبة فى «فحص السرادق» ، وقرّروا اقتحام قرطبة بالقوة واختاروا لأنفسهم خليفة من أحفاد الناصر أيضاً ، يسمى سليمان بن هشام ولقبوه « بالمستعين » وبذلك أصبح فى البلاد خليفتان : واحد فى قرطبة والآخر على رأس البربر .

معركة قنتيش ، نهاية الجيش الأندلسى التقليدى :

وأحسّ محمد بن عبد الجبار المهدي أنه لن يستطيع الثبات أمام البربر ، فأرسل يستنجد بالنصارى وخرج ليلقى البربر وكان اللقاء يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠هـ / ٥ نوفمبر سنة ١٠٠٩م فى « قنتيش » إلى الشمال الشرقى قليلاً من بلدة « القليعة » عند ملتقى وادى « أرملاط » بالوادى الكبير ، وفى هذه المعركة

حصدت صفوف الأندلسيين حصداً ، وانتصر البربر ، وفرّ نفرٌ من الأندلسيين الصقالبة إلى شرقى الأندلس وعلى رأسهم « واضح العامرى » واستقروا فى دانية ، وكانت تلك هى نهاية القوات الأندلسية التقليدية الأصيلة التى كان محمد بن أبى عامر قد أضعفها وشل حركتها ورفع البربر فوق رجالها فساء حالهم . تلك القوة العسكرية المجيدة التى طالما كسبت للإسلام فى الأندلس نصراً بعد نصر ، وبعد القضاء عليها لم يستطع أحد ممن تولوا الأمر أن ينشئ قوة عسكرية لها قيمة فى الأندلس .

ودخل البربر قرطبة وعاثوا فيها فساداً وقتلوا الكثير من أهلها ومن بينهم العالم المشهور « أبو الوليد الفرضى » وفرّ من قرطبة محمد بن عبد الجبار المهدي إلى الثغور وأصبح زاوى بن زيرى سيّد الموقف ، فأخرج هشاماً المؤيد من سجنه وتبين بذلك - بوضوح - أنه لم يمت ولم يدفن ، وفى ١٦ ربيع الأول سنة ٤٠٠ / ٨ نوفمبر ١٠٠٩م دخل زاوى القصر وهناك بايع البربر سليمان المستعين واتخذوه خليفة .

وقد أثبت سليمان المستعين فى المدة القصيرة التى تولّاها أنه ليس بكفءٍ للمنصب الذى تولاه واضطرب أمره ولم يحسن زاوى بن زيرى رؤية الأمور لأن القرطبيين نفروا من البربر نفوراً شديداً ، وفى نفس الوقت كان واضح العامرى قد ذهب إلى « أورخل » ولقى رامون بوريل الثالث كند برشلونة وطلب منهم عوناً عسكرياً فأعطوه فرقة عاد بها ليحارب البربر وعند « عقبة البقر » وهى بليدة صغيرة إلى الشمال من قرطبة التقى جيش البربر ، وعلى رأسهم سليمان المستعين بجيش محمد بن عبد الجبار المهدي وأحلافه من النصارى وفى هذه المعركة انهزم البربر وفر سليمان المستعين وعاد زاوى بن زيرى إلى قرطبة ولم يطل مقامه فيها بل أخذ أهله وفعل البربر فعله وانسحبوا إلى الجنوب .

النزاع بين محمد بن عبد الجبار المهدي وسليمان المستعين :

عاد محمد بن عبد الجبار المهدي إلى قرطبة وأراد أن يقضى على البربر فسار نحوهم مستعيناً هو الآخر بقوة من النصارى ، وأعانه بها الكونت « أرمنجول »

أمير أورخل ، واستطاع أن ينتصر على سليمان المستعين والبربر في منتصف شوال ٤٠٠هـ / أواخر مايو ١٠١٠ م فعول البربر على الانصراف إلى أفريقية وجمعوا أمتعتهم وأهلهم وساروا نحو الجنوب وتبعهم ابن عبد الجبار ومن معه من النصارى .

وكان اللقاء الثانى بينه وبينهم عند نهر وادى « أيره » فى ٦ ذى القعدة سنة ٤٠٠هـ / ٢١ يونيو ١٠١٠ م وهناك انهزم محمد بن عبد الجبار المهدي ومن معه من الأندلسيين والقطلانين ، وقتل البربر منهم مقتلة عظيمة حتى هلك فى المعركة ثلاثة آلاف من النصارى . وعلى أثر ذلك انسحب النصارى إلى بلادهم ، وكان « واضح » قد انضم إليه وعندما وقعت الهزيمة تجمّع الصقالبة العامريون وعلى رأسهم « واضح وخيران وعنبر » وانسحبوا إلى شاطبة وشرقى الأندلس ، ودخل سليمان المستعين مع البربر قرطبة بعد مقتل محمد بن عبد الجبار المهدي فى ٢٣ يوليو ١٠٠١م / ٨ ذى الحجة سنة ٤٠٠هـ وأعلنت خلافة هشام المؤيد للمرة الثالثة .

ولم تطل مدة خلافته هذه المرة لأن البربر دخلوا قرطبة وقتلوا الكثيرين من أهلها ولم يبق فى طاعة هشام المؤيد إلا قرطبة وما حولها .

هكذا بدأت الفتنة وتدهورت الأمور ، وقد اجتهد زعماء قرطبة فى مصالحة البربر أملاً فى عودة الأمور إلى نصابها ، ولكن البربر تمسكوا بدعوة سليمان المستعين فأجيبوا إلى ذلك فى شوال ٤٠٣هـ / مايو ١٠١٣ م على يد القاضى « أبى العباس بن نكوان » ودخل سليمان المستعين قرطبة وحاول أن يحكم معتمداً على البربر ولكنه فشل هذه المرة أيضاً ، خاصة وقد أقدم على قتل هشام المؤيد فى ١٥ ذى القعدة ٤٠٣هـ / ١٦ مايو ١٠١٣ م وبذلك انتهت حياة ذلك الخليفة المسكين الذى لم يهنا بخلافته يوماً واحداً .

لم يستقر الأمر لسليمان المستعين قطّ خلال السنوات الثلاث التى قضاها فى الخلافة ، ولكن الحقيقة أن جَوْاً من الفوضى والرهبنة ساد البلاد ، فلم يعد أحد يطمئن إلى أحد ، ولم يظهر رجل ذو كفاية وخلق يستطيع ضبط الأمور ، فتوالت الفتن وكانت المشكلة الرئيسية هى مشكلة ذلك الجند المرتزق الذى أتى به

المنصور وهم الصقالبة من ناحية، والبربر من ناحية أخرى، فأما الصقالبة فقد تركوا الميدان وفروا إلى السواحل الشرقية وحاولوا الاستقرار في أمان في المرية ومرسية، يقودهم زعيم صقلبي يسمى «خيران» وحاول نفر آخر منهم الاستقرار في دانية والجزائر الشرقية، وخاصة «بنو برزال وبنو يفرن»، ومع أن سليمان المستعين وافق على تثبيت المنذر بن يحيى التجيبي في ولاية سرقسطة والثغر الأعلى لكي يستعين به، إلا أن أمره لم يستتب.

ولو أن البربر أخلصوا لسليمان المستعين فربما كان قد صلح أمره ولكن الكثيرين من زعمائهم كانوا يخادعونهم وخاصة «زاوى بن زيرى وحبوس بن ماكسن» زعيم البربر الصنهاجيين، الذين كانوا قد وفدوا على المنصور وانضموا إلى جيوشه، ثم استقروا بعد الفتنة في غرناطة.

وقد ظهر من بين أولئك الصنهاجيين بيت يسمى بنى حمود، ينتسبون إلى الإدارة ولكنهم كانوا قد اندرجوا في جملة البربر بعد نهاية الإدارة، ثم دخلوا في خدمة المنصور وأولاده، فلما انقضى أمرهم واشتعلت الفتنة تطلعوا إلى الخلافة، وكان سليمان المستعين قد وليّ عليّ بن حمود منهم سبته، وأخاه القاسم بن حمود الجزيرة الخضراء، فطمع عليّ في الخلافة وتحالف مع «خيران الصقلبي» واقتحم قرطبة وقتل سليمان المستعين، وزعم أن هشاماً المؤيد كان قد ولاه عهده، وبدأ يحكم على أنه خليفة الأندلس، معتمداً على رجاله من الصنهاجيين والزناتيين، وبدأت في تاريخ الخلافة القرطبية فترة قصيرة من الفوضى هي فترة الحموديين.

ومن الطبيعي ألا يستطيع هذا الدعوى شيئاً كثيراً فلم يلبث أن قتله غلماناً في ٢ ذى القعدة ٤٠٨ هـ/ ٢٣ مارس ١٠١٨ م وخلفه أخوه القاسم بتأييد الزناتيين.
